سومر

الجزء الاول والثاني - المجلد الخامس والاربعون

١٩٨٧ - ١٩٨٨

قلعة على ضفاف نهر الفرات في المنطقة المتاخمة لحدود بابل والآشور

الدكتور كريستين كيسلي و أوليفيه لاكونت
ترجمة
الدكتور مؤيد عباس عبد الحسن
كلية الآداب - جامعة الموصل

تمثل لنا مدينة « خرادم » (Haradum) الواقعة على ضفاف نهر الفرات في المنطقة المتاخمة لبلاد بابل والتي تم تشييدها وفق خارطة رائعة التصميم نمطاً جديداً للتمدن الحضري في بلاد ما بين النهرين وتدعونا التنقيبات التي اجريت في هذه المدينة الى الاعتقاد بأن هذا التصميم الحضري المتقدم قد تم اكتشافه في مدن عراقية اخرى اختفت عن الانظار بفعل المباني المشيدة فوقها عبر العصور. ولقد اهمل موقع « خرادم » لفترة طويلة من الزمن قبل تشييد القلعة الاشورية « خرادا » (Harada) والتي تشكل جزءاً مهماً من النظام الدفاعي للآشوريين في وادي نهر الفرات ضد غزوات البدو الآراميين القادمين من الغرب. وأدت التنقيبات التي اجريت فيها وعلى القبور المحيطة بها الى اكتشاف بقايا حربية مهمة تعود الى بداية القرن الحادي عشر ق. م. كما كشفت لنا التقاليد المأتمية الرئيسة فيها.

في عام ١٧٦١ ق. م، قام حمورابي بتدمير مملكة ماري، التي تعد واحداً من أهم المراكز الحضرية في منطقة شرق الفرات وشيد بعد فترة قليلة من الزمن وعلى ضفاف النهر في منطقة « عنة » مركز اقامة صغيراً محصناً يسمى « خرادم » حيث شيده عام (١٧٤٩ ـ ١٧١٢) ق. م. الملك البابلي « سامو ايلونا » (Samsu-iluna) وبقي هذا المكان مأهولاً بكثافة لفترة مائة عام أي حتى عام ١٦٣٠ ق. م. تقريباً. كانت المنطقة الممتدة ما بين « طوطول » (Tuttul) شمالاً و « حندانوم » (Hindanum) الواقعة في الشمال الغربي تعرف قديماً باسم بلاد سوخوم العليا (Suhum) التي ارتبط بمصيرها وبشدة مصير « خرادم » فهي تعتبر مقاطعة متاخمة لبابل وأهتم بها لفترة من زمن الأشورين الذي تصدوا لموجات البدو الساميين القادمين من الغرب واطلق عليها اسم الآراميين بعد القرن الحادي عشر ق. م. فسمي هذا الموقع آنذاك « خرادا » وهو يشكل جزءاً من نظام دفاعي مهم تنتشر قلاعه في وادي نهر الفرات.

وقد عملت البعثة الفرنسية للآثار في العراق طيلة خمسة مواسم تنقيبية في هذا الموقع اعتباراً من ١٩٨١ وحتى عام ١٩٨٤.

بلاد سوهو العليا ـ البيئة والاقتصاد

تشكل عمليات التنقيب في « خربة الدينية » (Khirbet ed Diniye) أي خرادم/ خرادا القديمة جزءاً من برنامج دراسات الفرات الاوسط العراقي وتقع هذه المدينة الى الشمال الغربي من حديثة التي سيشيد عندها سد سيؤدي الى انغمار عدة مواقع اثرية تحت مياه البحيرة.

وتمتد المنطقة الخصبة الضيقة في وادي حديثة العميق نسبياً حتى مشارف نهر الفرات حيث لا تشرف الهضبة الكلسية عليه مباشرة. وحتى فترة قريبة كانت الحقول تروى بالنواعير التي تنتشر على طول النهر ابتداءاً من الحدود السورية وحتى هيت في الجنوب. ولم تكن آنذاك مساحة الاراضي المزروعة تتجاوز الهيكتار الا فيما ندر.

وكانت تمارس فيها حسب التقاليد الشائعة زراعة النخيل واشجار الفاكهة والحبوب وتربية الأغنام. ولقد ساهم ادخال المضخات المائية في السنين العشر الاخيرة بفضل احواض السقي في اتساع المساحة المزروعة حتى سهل الشواطىء الصخرية المجاورة والى تنوع الانتاج الزراعي.

وتتألف التكتلات البشرية الوحيدة في هذه المنطقة من المدن الصغيرة كمدينة « عنة » على الضفة الغربية لنهر الفرات، ومدينة « راوة » الواقعة على الجهة الاخرى منه.

وحتى عام ٦٠ ق. م كانت هذه المنطقة البعيدة عن مركز العراق او عن مركز سوريا حكراً على البدو الذين ينتمون الى عشيرة الجغافية. ولقد تحضر هؤلاء البدو تدريجياً واستمر البعض الآخر على حياة البداوة كما هو الحال في سوريا حيث نلتقي بهم

أيضاً وخاصة في منطقة ماري . ولم يتركوا لنا من ماضيهم غير قبورهم المنتشرة بانتظام في المواقع الاثرية القديمة وفي المناطق الاكثر ارتفاعاً او فوق التلال المحيطة .

ولقد تآكل السور المحيط بمدينة « خربة الدينية » بفعل وجود قبور البدو العديدة ويشار الى انتماء الاموات الى القبيلة ذاتها بعلامة متشابهة توضع قرب رأس المتوفي وذلك بالحفر على الحجر او على قطع الاواني القديمة أما اختلاف الجنس فيشار اليه بحجر منتصب بالنسبة الى النساء وبحجرين للرجال .

إن عوامل التضاريس الأرضية كانت تحتم إنشاء المدن بمحاذاة النهر مباشرة وإن قلة الانتاجية الزراعية بسبب ضيق المساحة المزروعة لم يشجع على التكتلات السكانية الكبيرة . وذلك يفسر احتمال نشوء مدينة « عنه » في جزيرة وسط نهر الفرات . اذ أن هذا الموقع الجغرافي يمكنها من حماية نفسها من الاعداء .

ولم تكن هذه المناطق آهلة بالسكان لفترة طويلة بسبب الفيضانات المتتالية لنهر الفرات ولعدم كفاية الوسائل التقنية لحمايتها من ارتفاع مناسيب المياه (كالسدود ومصاريف المياه وأسس الاسواز الكلسية المتينة ... الخ) .

وهذا يعني ببساطة بأن المنطقة التي هي مثار اهتمامنا كانت تخضع لسيطرة البدو في الازمان التي لم يكن فيها البابليون أو السومريون يتقلدون زمام الامور ويؤمنون الحماية اللازمة للمناطق المأهولة بالسكان .

كما إن التواجد العسكري للقوى العظمى كان مع فكرة تمدن الحدود واستيطان البدو . وهذا يعني أنه بعد تخريب او هجر هذه المواقع والذي يقابل باللامبالاة من قبل السلطة المركزية فإن المتطلبات المادية المفروضة بواسطة الاحتلال المستمر للارض كانت توضح سبب خضوع المنطقة دورياً الى اقتصاد متباين الا وهو اقتصاد شبه البداوة . وكان بدو هذه المنطقة يمارسون في اغلب الاحيان زراعة النخيل ورعي الاغنام وزراعة الحبوب ولكننا لم نستدل على أي أثر من بقايا قراهم .

مدينة بابلية تعود الى العصر الحجري

إن الحجم الصغير لمدينة « خرادم » التي يقدر محيطها بـ ١١٥ م والفترة القصيرة لوجودها يجعلانها موقعاً مهماً ليس في حد ذاتها فحسب وانما للنظرة الشمولية التي تقدمها لنا كموقع حضري م في ذلك الزمان وبرغم ما ذكره « سكنة ماري » (Mariotes) عن هذه المدينة فيبدو لنا بأن من أسسها هم البابليون الذين خلفوا حمورابي . لكن « خرادم » ربما لم تكن في بادىء الامر الا منطقة ذات أهمية لا تتناسب مع الخارطة التي نعرفها عنها .

فهناك ترتفع مبان من الطابوق على ثلاثة مستويات تخضع الى خطة شمولية ذات تنظيم ملحوظ . ولقد تم اعادة بناء المرحلة الثالثة (المستوى 3A) في اغلب الاماكن التي شملها الحريق وهذا ما جعلنا نجد الاسوار المنهارة تحت طبقة السقوف واكوام الاتربة المتروكة في محلها وللسبب ذاته فإن المستوى 3B كان بالنسبة لنا موضع اهتمام بالغ الأهمية .

والمدينة محصنة من الخارج بسور يحيطها طوله ١١٥ م وسمكه ٣ م وإن الباب الذي وجد وسط الحصن الغربي هو عبارة عن ممر ضيق للمشاة يحيطه من الخارج جداران بارزان ويؤدي في الداخل الى رواق ينتهي بساحة صغيرة وبمحور دائري عرضه ٢ م تقريباً يقع وسط المدينة ويتصل الشارع الرئيس بزاوية حادة بخمسة شوارع صغيرة ، يقع اثنان منها بمحاذاة السور من جهة الغرب والشرق . ويمتدان الى مبان الزاوية التي تستند في الجنوب الغربي على السور . وبهذا الشكل فإن المدينة مقسمة الى ثمانية احياء يضم كل منها عشر وحدات معمارية .

يعتبر انتظام خارطة « خرادم » مدهشاً تماماً كما هو مبين في وثائق بلاد ما بين النهرين التي في حوزتنا . ومع ذلك فليس بوسعنا أن نتصور بأن « خرادم » هي وحدها التي شهدت مثل هذا التصميم الحضري الحقيقي . اذ أن اغلب المواقع التي تم التنقيب فيها في العراق تعتبر مراكز واسعة سكنت لفترات طويلة من الزمن . اذ كان يجب على مختلف مستويات البناء أن تتكيف مع وجود البقايا التي سبقتها ،وأن لا تحتل دائماً اماكنها . ومن المستبعد الحصول على رؤية شمولية لهذه المدن بسبب سعة مساحاتها . لذا فإن التنقيب اقتصر على بعض أحيائها.

لقد سكن موقع « خرادم » الاثري ذو المساحة الصغيرة خلال مائة عام وتم تخطيطه وتنظيمه واعداده وفق خطة دقيقة جداً . بحيث تمت الاستفادة من النهر والاراضي . ويسلط هذا الموقع ضوءاً جديداً على التخطيط الحضري لبلاد ما بين النهرين .

من الناحية الفرضية تمتاز العمارة التي تعتمد على اللبن بامكانيات متعددة كالتغيير والاتساع في المجال الحضري . فهي محصورة داخل سور وتقسمها الشوارع الضيقة المخصصة للمشاة وللحيوانات . وكانت هذه الشوارع ضيقة جداً بحيث لم يعد من الممكن اجراء أي تغيير عليها أو الغاؤها . ولم يكن باستطاعة مدينة « خرادم » التوسع الا في ما وراء السور لأنها قرب النهر وضيق المساحة المزروعة لا يرجحان هذا الاحتمال ويضاف الى ذلك اللامبالاة التي كانت تعامل به من قبل البابليين .

ويضاف الى هذا التقسيم الهندسي تخصص مختلف الاحياء . فلم يتحقق تنظيم المدينة آنذاك نتيجة للتخطيط المنتظم فحسب وانما بسبب التحديد الدقيق للدور الذي سيلعبه كل شخص وكل مجال معماري .

ويوجد في مركز المدينة ومن جانبي الساحة الصغيرة المزودة بحاجز واطيء ، معبد في الطرف الجنوبي ويقع في الشمال دار

عمدة المدينة هاباساني (Habasanu) ويقيم الباقون في البنايات الاخرى امثال ريش ـ شمش (Rish-Shamash) وياشبو ادّو (Yashbut-Addu) الذين يمارسون التجارة مع مدن بعيدة نسبياً عن شمال بلاد ما بين النهرين أو عن الفرات الاوسط السوري .

وكما هو معلوم في بلدان الشرق الاوسط تظهر في خارطة البيوت بصورة عامة غرف صغيرة متوزعة حول ساحة مركزية . وفي اغلب الاحيان تقع هذه الغرف على جهتين أو ثلاث جهات منها . ففي كل بيت كانت تحتوي احدى الغرف على كمية كبيرة من قطع السراميك وعلى الارشيف الخاص بالعائلة . وتستخدم كذلك كمخزن لحفظ المواد الغذائية الاولية (كالغلال والزيوت) كما إن وجود مخازن الغلال والافران في الغرف الاخرى يعطينا تفسيراً لأستخدامها . أما اللحم والسمك والقواقع النهرية التي كانت موجودة ايضا ما بين المواد الاستهلاكية فلم يتم حفظها الا فيا ندر اذ لم يتم العثور الا على بناء واحد للتكديس مسند بالليّن، ويحتوي على عدد كبير من العظام واشواك الاسماك .

وتظهر من بين البقايا الاخرى المستخدمة في الحياة اليومية في « خرادم » ادوات معمولة من الطين المطبوخ كالالواح والتماثيل الصغيرة والابر المصنوعة من العظام والدبابيس البرونزية وخشاخيش الاطفال وسفن صغيرة .

هذا وقد تم تجديد بناء بعض الوحدات المعمارية اذ نشاهد على طول المحور المركزي سلسلة تحتوي على ثلاث بنايات نضم كل منها غرفة كبيرة واخرى صغيرة ونلاحظ ايضاً ذات التصميم المعماري جنوب دار « ياشبو أدّو » علماً بأن هذه الوحدات مزودة بمخازن للحفظ (كالحفر والخنادق) أو لغرض خزن أو استخدام الوقود . وتوجد في مكان آخر على طول المحيط الشرقي ثلاث غرف مستقلة تؤدي الى طريق مسدود . وتوجد ايضاً افران واماكن مخصصة للأعمال ، وادوات معمولة من العظام أو من البرونز وكل ذلك يجعلنا نعتقد بأنها كانت دكاكين تعود لاصحاب الحرف اليدوية .

إن ما يثير الدهشة هو تحققنا من أن سكان « خرادم » الذين كانوا يمارسون النشاطات التجارية والادارية والاقتصادية قد خلفوا لنا عدة آثار مكتوبة وكانوا يقيمون بجوار المعبد مباشرةً كأمثال (ريش شمش وياشبو أدو وهاباساني) .

ولقد تم بفعل التنقيبات اثبات العلاقة المتبادلة ما بين المسكن والحالة الاجتماعية والاقتصادية للافراد فكلما ابتعدنا عن طول المحور المركزي أي باتجاه الباب الغربي نقل الالواح / الرُقم الطينية وكذلك الامر بالنسبة للمستودعات الواقعة اسفل المحيط الغربي ، في الجهة المقابلة للمنطقة الصناعية حيث لم نعثر فيها الا على الواح معدودة .

اما بالنسبة الى خارطة المعبد فهي شبيهة بتصميم البيت العائلي ومع ذلك فهو يحتوي على بعض الملحقات فبوابته مشار اليها بجدارين بارزين وضعت فوقها تماثيل الاسود السوداء المعمولة من الطين المشوي ويقودنا هذا المدخل مباشرة الى ساحة مركزية مزودة بالمساطب وتظهر في نهاية هذه الساحة وعلى الواجهة الجنوبية الاطراف الخلفية لحيوان استطعنا تمييز احدى عينيه واذنه . وقد تم اكساء جسم الحيوان بطبقة من الطين النيء وتم العثور على موضع ربما كان يستخدم لحفظ هذا التمثال المخصص للعشائر الدينية . ونجد على جانبي المعبد سلسلة تتألف من غرفتين تضم احداهما مخزناً وجدت فيه ست جرار ورقم طينية .

واخيراً فإن تصريف المياه كان يتم في قنوات تمتد من الساحة الرئيسية المواجهة لمقصورة التمثال وحتى الشارع المقام على طبقات من الحصى النهري والذي يساعد على تصريف المياه .

« المقابر الأثمية »

طبقاً للاعراف السائدة آنذاك ، لم يتم العثور على قبور الاطفال والبالغين تحت البيوت ولا في جوار المدينة . ومن بين القبور الوحيدة التي انتشلت هي قبور المواليد الصغار الذين تتراوح اعمارهم ما بين اليوم والستة اشهر ولقد وُجدوا مجتمعين في جرار من الطين ذات اغطية . وتتوزع هذه الجرار بانتظام في زوايا الغرف أي تحت بيت الاسرة حيث توجد من اربعة الى ثمانية قبور تقريباً وذلك يدل على القيمة الأخلاقية الرفيعة التي يتحلون بها في هذا الميدان .

« خرادا ـ القلعة الاشورية »

بعد فترة طويلة من هجر موقع « خرادم » منذ نهاية القرن السابع عشر ق . م ، قام الملك « تيكلات فالازار » (Tiglath Phalazar) (1115-1077) ق . م بتشييد تجلات ـ بلازر أول قلعة اشورية في المنطقة ، فوق آثار بابلية قديمة . وخلفه في هذا المجال اغلب اتباعه حتى القرن الثامن ق . م . وكان اغلبهم يهتم بتوسيع اراضي المدينة وتأمين حمايتها بصورة خاصة خلال تلك الحقبة الزمنية ولا تعتبر هيمنة الآشوريين على مقاطعة « سوخو » إلا محاولة لردع موجات الآراميين لأن هؤلاء البدو القادمين من الصحراء السورية وقد زعزعوا خلال احدى الفترات الزمنية استقرار بلاد آشور وكان هؤلاء البدو يسلكون طرق الفرات الاوسط في تقدمهم نحو الشرق .

كما صاحب استقرار الاشوريين في بادىء الامر تشييد مواقع قوية يقع بعضها على التلال وتستخدم كابراج للمراقبة ويقع البعض الآخر على ضفاف نهر الفرات أو فوق جزرة وذلك لمراقبة الملاحة والمرور في الوادي الضيق لجهتي النهر . وعلاوة على استغلال جزء من هذه القلاع من قبل رجال الادارة الاشوريين فإنها كانت تساهم في تجميع القبائل حيث تدفع كل مقاطعة مرتبطة بها ضريبة الى سيد الاقطاعية . اما الحاميات فإنها تسعى الى توفير الامان وكذلك ايضاً تأمين زراعة الارض

المجاورة وانتعاش مستوى الحياة الاقتصادية لبلاد آشور. وتستخدم القلاع كقواعد خلفية لجميع الحملات التي يشنها الملوك باتجاه « الخابور » والبحر الابيض المتوسط. وهكذا فإن « خرادا » ربما كانت تستقبل « اشور بانيبال » حينما كان يعود من رحلة طويلة في « الخابور ».

ومع ذلك فإن الدور الرئيس الذي لعبته مقاطعة « سوخو » كان عسكرياً على ما يبدو فعندما نشأت الامبراطورية الاشورية في ظل حكم « تجلات ـ بلازر » الثالث اصبحت هذه القلاع مهجورة تماما بالنسبة للجميع. وفي غضون ذلك كان يقيم في محل من مدينة « عنة » وسورو » حكام مستقلين على ما يبدو عن الامبراطورية الاشورية ونو بصورة مؤقتة.

وبسبب التهديد الخارجي تبلورت الارادة السياسية الاشورية فعمدت الى تعدد القلاع في « سوخو » فاصبحت تشكل فيها مدينة صغيرة وهذا ما يفسر تحضرها المفاجيء. وبعد زوال التهديد كانت مدينة « عنة » التي تعتبر مركز حاكم المقاطعة تقدم بانتظام الضريبة الى الامبراطورية، فهي على ما يبدو المدينة المهمة الوحيدة في الماضي وفي الوقت الحاضر التي استمرت ما بين يابليا (Yabliya) وخندانو (Hindanu). أما باقي المنطقة فكان يسكنها البدو واشباه البدو.

كانت « خرادا » في بادىء الامر محاطة بسور سميك ذي غرف كبيرة (غرف عشوائية مليئة بالتراب) والذي تم اصلاحه وتوسيعه بانتظام فيما بعد. وشهد السور بصورة خاصة اضافة الحيطان الموازية له في الزاوية الجنوبية الغربية فقط وزود بسلسلة من الغرف غير المنتظمة وبقياس اصغر من السابق. وكان يحيط بالمدينة باكملها بعد ذلك سور أخير طول محيطه ١٥٠ م.

ولم يتم العثور في التل على أية بقايا خارج الحفر المليئة بقطع السيراميك اذ برزت آنذاك فرضيتان محتملتان فإن المدينة قد اجتاحتها مياه النهر التي غمرت بقاياها، ولم يبق من السور الغربي الا أسسه الحجرية. أو كان الامر يتعلق بوجود قلعة كانت تستخدم كمخبأ يحتمي فيه الناس وقطعان الماشية في حالة تعرضهم الى الخطر، ومن المحتمل وجود حامية صغيرة شيدت في اعلى السور. ومهما يكن من امر فقد تم العثور على آثار متآكلة على اسوار الاستحكامات حيث تتصل جدرانها الحجرية أو الطينية بالبيوت وبافران السيراميك ومخزن كان يضم ثلاثة وثلاثين وعاء كان يوجد في احدها شعير بستة صفوف. واخيراً فإن ما يؤمن استقلالية سكان المدينة في حالة محاصرتهم هو وجود بئر قد حفر في داخل الوقع.

دفن الموتى

بعكس ما كان يجري ابان الحقبة البابلية القديمة فإن سكان « خرادا » كان يتم دفنهم خارج الاسوار ولكن ليس بعيدا عنها. اذ تم العثور على قبور متعامدة مع المحيط الخارجي وذات اشكال متباينة وكذلك على مقبرة حقيقية تقع بمحاذاة الحائط الغربي. وبهذا الشكل فإن الاموات يرقدون قرب ديارهم تحت الارض في العالم السفلي وبالقرب من عوائلهم حتى يحافظون على جذورهم.

ولو افترضنا أن بعض القبور كانت تعاصر فترة بداية بناء هذا الموقع والاخرى اعقبت تلك الفترة فهذا يدل على أن الآثار قد استخدمت كمقابر آنذاك وهذه العادات تمارس كثيراً في الشرق الاوسط وما زال البدو حتى وقت قريب يدفنون فيها أمواتهم.

وتظهر الاجسام في اوضاع متباينة فهي مستلقية على الظهر أو على الجانب، سيقانها ممتدة أو معقوفة. وأيديها موضوعة على الصدر أو مسدلة... الخ فهي موضوعة في جرتين متصلة احداهما مع الاخرى أو في جرة واحدة ذات غطاء حسب ما يتعلق الامر بالشخص بالغا كان ام طفلا. ولتجنب اغتصاب حرمة القبور وتناثر عظامها الذي يخشاه سكان ما بين النهرين فقد عمدوا الى اخفاء الآثار التي تدل على وجودها ومن المحتمل أن تحتوي هذه القبور على قبور اخرى سبقتها. ويضم القبر ضمن التقليد العام شخصا واحداً ومن النادر العثور على قبر يحتوي على شخصين لكن الجرار ذاتها يمكن استخدامها مرتين على شرط أن يدفع الهيكل العظمي الاول الى القعر.

أما بالنسبة الى العدة التي توضع في القبور مع الاموات فتحتوي على الاسلحة ورؤوس الرماح الحديدية وكذلك توجد مواد للتجميل كقلائد اللؤلؤ وخواتم برونزية ودلايات (جواهر تعلق بالعنق) واقراط وامشاط مصنوعة من العظام ويعثر أحيانا فيها على اختام اسطوانية... الخ.

ونستدل خارج الجرار ذاتها على شيئين منظمين يكمنان في اتجاهاتها وفي عددها المأتمية اذ يوجد اتجاهان متميزان. فلا يقع احد من هذه الجرار على مستوى النقاط الرئيسية ولكن على ما يبدو فإن السور الخارجي قد استخدم كنقطة دالة وتقع القبور في أغلب الاحيان على شكل متوازي معه أو متعامد. هذا وإن القبور المنحرفة بالنسبة الى الاستحكامات الواقعة في الشمال والجنوب أو في الشرق والغرب تعتبر استثنائية.

ويخصص القدح الصغير أو الطاس الذي يوضع ضمن الاعراف الثابتة قرب رأس المتوفي لجمع التبرعات التي تقدم اليه بعد موته وانصب الاهتمام في الاعوام الأخيرة على دراسة الطقوس الجنائزية لأنها تعكس لنا مجتمع الاحياء بكل طبقاته. وانظمته التي تتغير وفق العمر والجنس.

واذا ما ارتبط وجود الاسلحة بالرجال وقلائد اللؤلؤ بالنساء في « خرادا » فهذا يدل على أن المتوفين كانوا قد شهدوا مصيراً

واحدا وحالة متقاربة رغم وجود بعض الاختلافات فيما بينهم ومع ذلك فإن هذا الموضوع يستحق دراسة مفصلة ودقيقة نتيجة للمعطيات التي توصلنا اليها فهذه الدراسة وحدها ستسمح لنا بايجاد علاقات اخرى واستثنائات ذات معنى .

ولقد تم الاهتمام بصورة خاصة بقبر واحد يعود الى احد المحاربين البارزين الذي كان على الارجح مسؤول « خرادا » فقد تم اعداد هذا القبر من الداخل بحيث وجدت فيه غرفتان صغيرتان شبيهتان بغرف السور ، يوجد سلم في احدهما يؤدي الى حجرة الناووس (مدفن تحت الارض) الواقعة في الغرفة الاخرى . علماً بأن الغرفتين تعتليهما قبتان وهما مطليتان بالجص . ولقد حُفر الخندق الجنائزي في الأسس الصخرية وغطيَّ ببلاطات من الحجر ووضعت مع جثة المتوفي المطروح على الظهر وعلى امتداد ذراعيه وساقه الايمن عدة ثمينة تتألف من حزمه من أسنة الرماح ترافقها في اليد اليسرى مجموعة من مقابض السيوف المصنوعة من البرونز والفضة والتي ما زالت تحتوي على بقايا خشب عصا الصولجان التي ترمز الى السلطة والقيادة . كما تتوزع على المعصمين وعلى الصدر شرائط تتفرع من شجرة منمنمة ومصنوعة من البرونز ومزينة من جهتيها بسعيفات النخيل أو بالثيران الجنحة . هذا وإن الثقوب الموجودة على نهايات هذه الاشرطة جعلتنا نفترض بأنها كانت مخاطة بالملابس ووجد في منطقة العانة مصفاة من البرونز أي قرب اليدين وأناء من الفخار عند القدمين ويضم ظاساً برونزياً ...

إن نتائج تنقيباتنا جعلتنا نعتقد بأن الشخص المدفون هنا قد اشرف بنفسه على تشييد مثواه الاخير كبقية الملوك الآشوريين . ويقع هذا القبر على اطراف المقبرة الكبيرة قرب اخدى زوايا القلعة في الموقع الذي كان يقصده الآراميون فيبدو القبر وكأنه يشرف على حراسة القلعة .

« خرادم » ودولة « سوهوم » في المصادر المسمارية أبان العهد البابلي القديم

تمتاز النصوص العديدة المدونة بالكتابة المسمارية والتي تم اكتشافها في « خرادم » بخاصية مهمة لكونها تتوزع على الاحياء السكنية المنتشرة في القلعة ولكونها تحمل اسم الساكن الاصلي وطبيعة نشاطاته .

بجانب مدينة آنات (عنة) الواقعة وسط جزرة عاصمة دولة « سوهوم » الواقعة في منطقة الفرات الاوسط . ولقد تمت معرفة ذلك من خلال نصوص دولة « ماري » التي تطرقت الى « مقاطعة سوهوم » المقسمة الى سوهوم السفلى الواقعة ما بين « توتول » « ويابليا » ، والى « سوهوم العليا » الواقعة بين « آنات » و « خندانو » . وكان يشرف على ادارة هذه المقاطعة حاكم يتم تعيينه من قبل ملك ماري الذي يتخذ من « آنات » مركزاً لحكمه ومن خلال الرسائل التي كان يبعثها ملك « ماري » . يمكننا الاعتقاد بأن « سوهوم » كانت منطقة مهددة من جراء الغزوات التي يشنها ملوك « آشور » « واشنونا » .

اصبحت « سوهوم » مقاطعة بابلية بعد احتلال « ماري » ابان حكم حمورابي واتباعه وتشير رسالة احتجاج وجهت الى حاكم المقاطعة المقيم في « يابليا » بأن سلطة مدنية وعسكرية تشرف على ادارة المدينة لكن أمنها بقي مهدداً من قبل المتمردين على مملكة ماري . هذا ويشير مرسوم ملكي لاستيفاء الديون في عهد « أمي صدوقا » الى اسم « سوهوم » حينما أكد على أن تأخير ديون استئجار الحقول سوف لا يكون مشكلة .

فقبل اكتشاف « خرادم » كانت المعلومات المتوفرة لدينا حولة دولة (سوهوم) ابان العهد البابلي القديم تقتصر على المعطيات الآنفة الذكر حيث كنا نتصور محيط مقاطعة محتشدة بالسكان وممتدة على طول الشريط المحاذي لنهر الفرات اعتباراً من مدينة « توتول » الى « خندانو » الخاضعتين الى مملكة ماري ومن ثم البابلية . ومن الصعب تحديد التاريخ الذي استطاعت فيه هذه المنطقة من التخلص من قبضة اتباع حمورابي .

إن « خرادم » هي التسمية القديمة « لخربة الدينية » وهذا الشيء تأكدنا منه في الرقيم المسماري الذي عثرنا عليه في هذه المدينة التي كانت تتخذ طابع المدينة المصممة هندسياً على شكل مربع وتلتقي شوارعها بزوايا حادة ولقد جاء هذا التنظيم أثر بناء جماعي سريع جداً وفق تقاليد أصيلة في بلاد ما بين النهرين .

وبفضل الرُقم التي وجدناها من خلال حملات التنقيب الخمس استطعنا معرفة تاريخها اذ هي تعود الى عهد « سامو ايلونا » (Samsu-iluna) وامي صدوقا (Ammisaduqa) . ومن الممكن الافتراض في هذا المجال بأن الموقع لم يشغل بعد حكم الاخير لأن دولة « سوهوم » ذاتها لم تكن خاضعة بعد الى شيطرة العهد البابلي : أما بالنسبة الى تاريخ بداية انشغال موقع « خرادم » فإنه يرجع دون شك الى فترة ما قبل « سامو ايلونا » حيث أن اسم المدينة وَردَ مرتين او ثلاث مرات في نصوص « ماري » . لكن الامر كان يتعلق في اغلب الظن بمجمع سكني أصغر من حجم المدينة والذي تم اكتشافه في « خربة الدينية » .

ولقد توصلنا لاول مرة الى معرفة تاريخ انشغال هذا الموقع من خلال الرقيم الكبير الذي رفع من تحت المقبرة العائدة للعهد الآشوري الحديث والتي تقع على حافة الحصن الغربي . أي يتعلق الامر هنا بالمستوى « 3C » ويعود تاريخ الرقيم الى العام السادس والعشرين لعهد الملك « سامو ايلونا » . ولقد أثبت لنا هذا الرقيم التاريخ المضبوط لانشغال هذا الموقع حيث ورد فيها

بيع قطعة من اراضي « خرادم » امام خمسين شاهداً تقريباً ويعود الرقيم الأكثر حداثة الى العامين الثامن والتاسع عشر من عهد الملك « امي ـ صدوقا » . اذا كان تأسيس مدينة « خرادم » يعود الى الثلث الاخير للقرن الثامن عشر ق . م فإن الجزء الاكبر من النصوص التي عُثِرَ عليها داخل المدينة قد وجدت في المستويين الفوقيين ويرجع تاريخها الى عهد « ابي ـ ايشوخ » (Abi-Eshuh) « وامي ـ ديتانا » (Ammiditana) (أي اعتباراً من ١٧٠٠ ـ وحتى ١٦٦٥ ق . م تقريباً) وعهد « امي ـ ديتانا » وامي ـ صدوقا (١٦٣٣ ـ ١٦٦٥ تقريباً) بالنسبة الى المستوى الاكثر حداثة .

وهنا نلاحظ شيئاً مهماً ألا وهو توزيع النصوص على مجموعات من المساكن حيث يمكننا بهذه الطريقة التعرف على اسم الساكن الرئيس وطبيعة اعماله في بعض الحالات . وتحتوي هذه النصوص بصورة خاصة على رسائل ووثائق قضائية وادارية كما يضم البعض منها قوائم للتوزيع . ولقد تم وضع هذه النصوص كما يجري حالياً في اغلفة من الطين ووضعت فوقها الاختام الاسطوانية للشخص الذي اشرف على كتابتها ، كما يوجد على الطرد عنوان الشخص المرسلة اليه الرسالة .

وهكذا فقد اتضحت الحياة اليومية بتفاصيل اصلية على الغالب وباستطاعتنا تكوين هذه الفكرة بنظرة سريعة الى الارشيفات المحفوظة جيداً .

دار العمدة

يقع هذا الدار على حافة الساحة الرئيسية لخرادم وشغلت من قبل حبساني (Habasanu) عمدة المدينة (رابيانم) ومن ثم من قبل ابنائه في عهد « ابي ـ ايشوخ » . ويشير النص KD75 بأن العمدة « حبساني » قد تنازع مع مساعديه « الاداريين » بخصوص الاموال التي جمعها من سكان المدينة فتجمعوا باكملهم وقالوا له هذه العبارة : « فضلاً عن النقود التي ارغمتنا على دفعها لك ما تزال في بيتك مبالغ كبيرة من الاموال والاغنام التي وهبناها لك والتي هي فائضة عن حاجتك » وتوصل « حبساني » بعد هذا التصريح الى اتفاق مع سكنة مدينة « خرادم » وتمكن ابناؤه بفضل ثروته التي حصل عليها بالطرق المشروعة وغير المشروعة من شراء اراضي تحيط بمدينة « خرادم » .

المعبد

عثِرَ في هذه البناية على بعض الرقم التي تمثل من الناحية المعمارية مكاناً للعبادة . ويضم احد هذه النصوص KD90 قائمة بالمجوهرات العائدة للالهة عشتار وكانت توجد قرب الرقيم بضع جواهر وقطعتان مزينتان من الفضة وعثر ايضاً على واحد وخمسين حجراً كريماً على شكل اختام اسطوانية وسبعة واربعين حجراً على شكل قلادة واثني عشر حجراً من العقيق الأحمر ذي اللون الفاتح وميدالية على شكل قرص شمس صغير من الفضة وشعار فضي .... الخ .

دار ياشبط أدّو

شغلت هذه الدار من قبل « ياشبط أدّو » (Yashbut Addu) ومن بعده ولده « زاكيرم » (Zakirum) . ووجدت فيها مجموعة من الرسائل والنصوص الاقتصادية لأن « ياشبط أدّو » كان يعد من اقدم سكنة « خرادم » ومن اشهر وجهائها نظراً لسعة مساحة بيته وموقعه المهم في سكنة المدينة ، لكن ولده قد تعرض الى بعض المشاكل كما تشير الى ذلك الرسالة (KD10) .

قال يابناهيمو : « قل ليادلم » بأن يقوم كل من « شماش » « ومردوخ » بالاشراف على معيشتك ! » لأني سمعت من يتحدث باستمرار عن سرقاتك واعمالك السيئة ، [...] ولقد تحدث « ابلا ـ هانات » امام « يازي ـ أدوّ » وامام سكان « خرادم » القدماء بهذه الكلمات :

« لقد استلمت خمسين دراخمة من ياشبط أدّو . » فلما اذن ترفع دعوى ضد « زكيرم » وتريد أن تهدم داره » .

دار ريش شمش (Rish-Shamash)

عُثِرَ في هذه الدار التي تقع قرب مسكن « حبساني » على اكبر عدد من الرقم (خمسين رقيماً تقريباً) وهي تضم رسائل ونصوص اقتصادية وقضائية وتظهر عليها كلها اسم « ريش ـ شمش »

لم يكن « ريش ـ شمش » ساكن هذه الدار الوحيد نظراً لاسماء الاعلام العديدة التي وردت في هذه المصادر . ونستطيع أن نكون فكرة عن تفاصيل الحياة اليومية لهذه الدار من خلال الرسالة «KD13» التي بعثها احد الخدم الى سيده : فكتب يقول : « فيما يخص الحبلين اللذين كتبت لي بشأنهما يوجد في حوزتي حبل من الأسل وآخر عادي وقد سلمتهم الى « ناراتوم » (Naratum) وكل شيء يسير على ما يرام في المسكن . اخبرك بانهيار الجانب الخلفي للسد ولكني تمكنت من اصلاحه فلا تنزعج » .

وتوجد بجوار هذه الدور التي عرفنا اسماء مالكيها والتي عثرنا فيها على كثير من الرقم الطينية بيوتاً اخرى نجهل اسماء ساكنيها . ومن جهة اخرى يشمل الحي الشرقي للمدينة مجموعة من البنايات التي لم تعد في الواقع بيوتاً ربما كانت تحتوي على محلات أو مخازن لان الرقم الطينية التي وجدت فيها تمثل قوائم لتوزيع الاموال والمنتجات المختلفة .

وبصورة عامة فإن « خرادم » تمثل خلال المائة عام لوجودها استناداً الى النصوص التي تشهد بذلك ضيعة صغيرة تقع على ضفاف نهر الفرات ، لها عمدتها وجهازها الاداري الخاص كما يوجد فيها مرقد صغير يقع في المركز وميناء على ضفاف نهر

الفرات وسور حصين. كان سكان مدينة « خرادم » يعتمد في معيشته على زراعة الاراضي المحيطة بالمدينة وعلى التجارة حيث تشير الرسائل العديدة التي وجدت فيها الى تجارة محلية تمارس عبر النهر فكانت السفن تنقل المحاصيل الزراعية والرقيق. وتسجل بالمقابل تجارة المسافات الطويلة حضوراً متميزاً وخاصة ما بين آشور في الشرق « والى إمار » (Emar) في الغرب وتضاف الى ذلك عوائد القروض التي يقدمها اغنياء المدينة الى المعوزين والتي تمنح مقابل فائدة مادية أو مقابل تقديم مقادير من الحبوب. وكانت تعيش « خرادم » برخاء وازدهار وتؤمن الدفاع عنها حامية عسكرية تتلقى أوامرها من محافظ « بابليا » مقابل ضريبة تدفعها الى ملك بابل. لكن فترة الازدهار هذه لم تستمر طويلاً اذ اندلع في المدينة دون شك حريق في عهد « أمي ـ ديتانا ». وفي ظل حكم « أمي ـ صدوقا » تهدمت « خرادم » فجأة بحيث لم يستطع سكانها حتى من انقاذ أثاثهم ومحفوظاتهم. ويبرز احتمالان لتدمير هذه المدينة. البدو والنهر اللذان كان خطرا عليها خلال تاريخ وجودها.

كانت القبائل البدوية تقطن الصحراء المحيطة بالشريط الضيق المزروع ابان عصر مملكة ماري وكانت تخضع للسلطة المركزية. وكما تشير اسماء الاعلام التي يلقب بها سكان « خرادم » فهي تشكل خليطاً من السكان. يحمل الاقلية منهم اسماء بابلية وتحمل الغالبية اسماء سامية غربية كما يوجد بينهم احفاد البدو المتحضرين حديثا.

الاسماء القديمة	الاسماء الحديثة
خرادم ـ خرادا	خربة الدينية
آنات	عنة
خندانم/ خندانو	كرابلة
يابليا	حديثة
رابيكم/ رابيكو	فلوجة

ص ٥٦

تفتقر هذه الخارطة الى مدينتين تمت الاشارة اليهما في هذا التحقيق وهما خندانم (كرابله) التي كانت تقع على بعد ٢٠ كم تقريباً من « ماري » و « طوطول » الواقعة قرب حديثة.

ص ٥٨

تقع « خرادم » على قمة اراضي نهر الفرات المتعرجة ويسمح لها هذا الموقع الاستراتيجي بمراقبة وملاحظة مساحة واسعة من الاراضي وكانت حاميتها الصغيرة واسوارها تصد عنها هجمات البدو التكررة. ومن المحتمل أن شن البدو غارات جريئة بحيث تمكنوا من اختراق المواقع للمدينة.

ولكن هذا الاجتياح لم يحدث ربما الا بعد تهديم المدينة بسبب مياه نهر الفرات السريع الجريان في تلك المنطقة بحيث تآكلت ضفافه المتعرجة الممتدة ما بين الحدود السورية « وعنة » ففي العهد البابلي القديم كان نهر الفرات يسير بمحاذاة المدينة أما الآن فهو مفصول عنها بمنطقة غرينية. ولقد وقعت « خرادم » بالتأكيد ضحية فيضان غمرها خلال فترة من الزمن قبل أن تسكن في العهد الاشوري الحديث ومن ثم بدأت مرحلة جديدة من الانغمار والتآكل كشفت عن مركز الموقع وأظهرت الطبقات البابلية القديمة.

ومع كل ذلك فإن « خرادم » استطاعت أن تعرض لنا تاريخها القديم الذي يعود الى ثلاثة آلاف سنة ونصف قبل أن تغمرها للمرة الاخيرة المياه المخزونة في سد حديثة.

قامت كل من المديرية العامة للآثار العراقية والمديرية العامة للعلاقات الثقافية والتقنية التابعة لوزارة العلاقات الخارجية الفرنسية بتمويل هذا المشروع ونتقدم هنا بالشكر الى السيد « مؤيد سعيد الدامرجي » عن الجانب العراقي والى السيد « فيليب كويمان » عن الجانب الفرنسي.

التسلسل الزمني لاول سلالة بابلية
(١)

حمورابي ١٧٩٢ ـ ١٧٥٠
غزو لارسا ١٧٦١
غزو ماري ١٧٥٩
سامسوإيلونا ١٧٤٩ ـ ١٧١٢
ابي ـ ايشوح ١٧١١ ـ ١٦٨٤
امي ديتانا ١٦٨٣ ـ ١٦٤٧
امي ـ صدوقا ١٦٤٦ ـ ١٦٢٦
سامو ديتانا ١٦٢٥ ـ ١٥٩٥
غارة الملك الحثي مورسيلي الاول على بابل ١٥٩٥

اسفل الصفحة (٥٨)
أثار اختام اسطوانية على مقطع من غلاف طيني (2)
ص ٥٩
رقم (الوثائق القضائية والرسائل) التي وجدت في مواضع متباينة من الموقع في المستويات البابلية التي تعود الى العصر الحجري.